البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية

الدكتور
عبد العزيز رمضان

البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية*

فى النصف الثانى من القرن العشرين ثار بين الباحثين المحدثين المشتغلين فى حقل الدراسات البيزنطية جدل حول قضية الانقطاع أو التواصل الاثنى والثقافى بين الإغريق القدماء والبيزنطيين ، وفى الوقت الذى ذهب فريق من هؤلاء الباحثين إلى إنكار فكرة استمرارية الحضارة الإغريقية وتواصلها مع الحضارة البيزنطية ، اتجه فريق آخر إلى تفنيد هذا الرأى مستندين إلى شواهد بعينها تؤكد التواصل بين الثقافتين والأمتين.

وقد استهل روملى جينكينز Romilly Jenkins فى عام ١٩٦٣م طرح القضية على مائدة النقاش ، مقترحا ضرورة تناولها فى ظل ركيزتين أساسيتين وثيقتا الصلة بهذه القضية ، الأولى تتعلق بالأيديولوجية السياسية البيزنطية ، والثانية خاصة بما أطلق عليه "الانقطاع العرقى". وفى مجال الأيديولوجية السياسية أكد جينكينز على أن البيزنطيين هم الرومان الجدد، إمبراطوريتهم هى الإمبراطورية الرومانية المتأخرة بعد انهيار الإمبراطورية الأولى ، وعاصمتهم مدينة القسطنطينية " روما الجديدة " بعد أن ضاعت روما القديمة تحت أقدام جحافل القبائل الجرمانية ، ويرى جينكينز أن هذه الأيديولوجية لم تسمح بوجود أى تمييز قومى أو عرقى بين الجماعات الاثنية العديدة التى قطنت أراضى الإمبراطورية ، حيث كان موضوع العرق غريبا عن الفكر السياسى البيزنطى. وأخيرا

---

* مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب – جامعة عين شمس.

يؤكد جينكينز على الانقطاع العرقى بين الإغريق والبيزنطيين ، خاصة بعد الغزوات السلافية ، هذا مع اعترافه بأن السلاف قد تهللنوا بصورة تامة[١].

وواصل جينكينز آراءه فى كتابه " بيزنطة : القرون الإمبريالية " ، مشددا على أن شعب هيلاس القديمة انقرض منذ فترة مبكرة للغاية من التاريخ البيزنطي، وأن الطابع الوحيد للاستمرارية الذى ورثه البيزنطيون عن هذا الماضى المجيد ، هو النصوص الكلاسيكية المنحولة عن اليونانية الآتيكية ، والتى استخدمت كأساس فى التعليم البيزنطى[٢]، وعلى درب جينكينز سار تلميذه سيريل مانجو Cyril Mango الذى تجاهل تماما وجود أى عنصر إغريقى فى مكونات الثقافة البيزنطية ، وكرر آراء جينكينز بشأن الانقطاع العرقى بين الإغريق القدماء والبيزنطيين[٣].

وعلى الجانب الآخر ، اتجه فريق آخر من الباحثين المحدثين ، خاصة اليونانيين لأهداف ومشاعر قومية ، إلى معارضة آراء جينكينز ومن سار على دربه ، مؤكدين على وضوح وبروز العناصر الإغريقية التى أسهمت فى تشكيل الحضارة والثقافة البيزنطية ، ومنهم على سبيل المثال: الباحث اليونانى أبوستولوس فاكالوبولوس Apostolos Vakalopoulos ، الذى أكد على التواصل العرقى بين الإغريق القدماء والبيزنطيين ، كما فند الآراء المتجاهلة لوجود عناصر من الحضارة اليونانية فى بيزنطة، وأكد على أن بقاء اللغة اليونانية ، ونصوصها ، والفلكلور والثقافة الشعبية ، وبعض مظاهر وسمات الفن اليونانى ، ومكتبات الأديرة العامرة بالمؤلفات والنصوص الكلاسيكية. وفوق هذا وذاك

---

(1) Jenkins ,R., *Byzantium and Byzantinism . Lectures in Memory of Louise Taft Semple* , Cincinnati , 1963.

(2) Jenkins , R., *Byzantium . the Imperial Centuries A.D.610-1071* , Newyork , 1966 , pp. 2 ,18.

(3) Mango , C., "Byzantium and Romantic Hellenism" , ***Journal of the Warburg and Courtauld Institutes*** 28(1965) , pp.29-43; Idem , "Discontinuity with the Classical Past in Byzantium" , *Byzantium and the Classical Tradition* , ed. M.Mullett & R.Scott , Brimingham , 1981, pp.48-57.

وقد أعيد نشر هذه البحوث فى

Mango , C., *Byzantium and its Image . History and Culture of the Byzantine Empire and its Heritage* , London , 1984 , nos.I,III.

وجود وعى ملحوظ بين المثقفين البيزنطيين بالصلات الحضارية والثقافية التى تجمعهم بالإغريق القدماء، وكلها شواهد تظهر استمرارية ثقافية وفكرية ، وتواصلا حضاريا مع الماضى الكلاسيكى[١].

ودون الخوض فى عرض تفصيلات الجدل الدائر حول هذه القضية ، والتى أفرد لها الباحث اليونانى سبيروس فريونيس Speros Vryonis دراسة مستقلة عام ١٩٧٨م عرضت لمختلف أبعادها[٢]، فإن هذه الدراسة مجرد محاولة للاقتراب من القضية من زاوية أخرى ، تشكل - من وجهة نظرى - ركيزة أساسية وإضافية لفهم أبعاد هذه القضية، وهى موقف البيزنطيين أنفسهم تجاهها، فهل فكر البيزنطيون فى أصولهم العرقية والثقافية؟ وهل أدركوا أنهم أصحاب هوية خاصة ميزتهم عن غيرهم من الجماعات الاثنية العديدة التى قطنت أراضى الإمبراطورية ، وعن غيرهم من الشعوب المعاصرة لهم أصحاب الـهويات الاثنية والثقافية المتباينة ؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب ، فأية هوية.. هل اليونانية ؟ بحكم وجودهم على أرض يونانية ذات حضارة هللينية متميزة وموغلة فى القدم، أم الرومانية ؟ لكون إمبراطوريتهم هى الوريث الشرعى للإمبراطورية الرومانية القديمة ، ومدينتهم القسطنطينية هى " روما الجديدة " بعد ضياع القديمة فى قبضة القبائل الجرمانية.

يعرف باحثو علمى النفس والاجتماع مفهوم الهوية بمعنيين مختلفين ، وينبع هذا الاختلاف كنتيجة منطقية لاختلاف مجالات اهتمام باحثى كل علم ، فعالم النفس يهتم بإدراك الفرد لهويته الذاتية وموضعه فى العلاقة مع الآخرين والعالم المحيط به. أما عالم الاجتماع فيهتم بقضايا وثيقة الصلة بالهوية ، وهى قضايا التضمين inclusion والإقصاء exclusion داخل المجتمع " أنا جزء من الجماعة a ولكننى أختلف عن الجماعة z " ،

(1) Vakalopoulos , A., "Byzantium and Hellenism . Remarks on the Racial and the Intellectual Continuity of the Greek Nations" , ***Balkan Studies*** 9(1968)pp.101,126.

(2) Vryonis , S.Jr., "Recent Scholarship on Continuity and Discontinuity of Culture : Classical Greeks , Byzantines , Modern Greeks" , ***Byzantina Kai Metabyzantina*** I (= ***The "Past" in Medieval and Modern Greek Culture*** , ed. S.Vryonis) , Malibu , 1978, pp.237-56.

وهذه الثنائية تمثل نقطة الالتقاء بين المعنيين ، فالنفس تحدد هويتها بالمقابلة مع الآخر ، والمجتمع يحدد هويته بمن يتضمنه من أفراد فى مواجهة من أقصوا عنه ، وهذه الثنائية تمثل محورا أساسيا لأية صياغة للهوية[1].

وعند تطبيق هذا السياق النظرى عمليا على إدراك المجتمع البيزنطى لهويته بالمقابلة مع المجتمعات الأخرى ، تطالعنا المصادر والنصوص البيزنطية بما يمكن أن يطلق عليها "هوية مزدوجة "، يونانية ورومانية ، ترتكز الأولى على أصول هذا المجتمع الثقافية والحضارية. أما الثانية فتنبع من أيديولوجيته السياسية ، وكلا منهما تبرز بوضوح عندما يجد البيزنطيون أنفسهم بحاجة إلى تحديد وصياغة هويتهم فى مواجهة الآخر .

لاشك فى أن الإمبراطورية البيزنطية ككينونة سياسية هى امتداد وتواصل مباشر للإمبراطورية الرومانية القديمة ، التى اشتملت على عالم البحر المتوسط بأكمله وأجزاء كثيرة خارجه، وذلك منذ أن هجر الأباطرة الرومان الغرب وولوا وجوههم شطر الشرق، وبذلك انتقل الثقل السياسى للإمبراطورية إلى الشرق اليونانى ، إلى العاصمة الجديدة التى أقامها الإمبراطور قسطنطين ، حيثما كانت تقع المدينة اليونانية القديمة بيزنطة ، وأصبحت القسطنطينية هى "روما الجديدة" ، وغدا البيزنطيون هم الرومان الجدد ورثة الرومان الأقدمين .

غير أن الإمبراطورية البيزنطية ككيان حضارى نشأت على أرض يونانية ذات حضارة هللينية لها سمات وخصائص خاصة تختلف عن نظيرتها الرومانية ، وفى هذا النصف الشرقى الواسع من الإمبراطورية كانت اليونانية هى لغة الحديث والثقافة ، ومع انتقال مركز الإمبراطورية الرومانية من الغرب إلى الشرق ، انتقلت معها اللغة اللاتينية كلغة رسمية للإدارة المركزية والجيش والقانون ، وكان الشرقى الذى

---

(1) Smyth , D.C., "Byzantine Identity and Labelling Theory" , ***XIV International Congress of Byzantine Studies*** . University of Copenhagen , 18-24 August 1996 , ed.K.Fledelius , Copenhagen , 1996 (Major Papers) , pp.26-36 , esp. pp.16,28-29.

ومن الملاحظ أن ديون سميث تناول فى هذه الدراسة العناصر المتضمنة داخل المجتمع والمقصية عنه من الشرائح والطبقات المختلفة ، ومدى شعور أفراد هذه الطبقات والشرائح بهويتهم داخل المجتمع الذى يعيشون فيه ، وهل اندمجوا فيه أم لا .

يريد المشاركة فى هذه المجالات مضطرا إلى تعلم اللاتينية ، وربما اضطر فى الغالب إلى تبنى الثقافة اللاتينية ، وعلى الجانب الآخر ظلت اليونانية لغة الحياة اليومية والتعليم والثقافة[١].

ومع تأسيس الممالك الجرمانية فى الغرب الإمبراطوري، فى غالة وأسبانيا وإيطاليا ذاتها، فقدت الإمبراطورية فى القرن الخامس معظم العالم المتحدث اللغة اللاتينية، ومنذ ذلك الحين ظهر فى القسطنطينية خطان سياسيان: أحدهما " رومانى " هدفه استرداد الغرب وإحياء الإمبراطورية العالمية بتقاليدها الرومانية القوية ، وتجسد هذا الاتجاه بوضوح فى سياسة الإمبراطور جستنيان الاستردادية. والآخر " بيزنطى " انصرف عن استرداد الغرب الإمبراطورى كأمر غير قابل للتطبيق عمليا ، وركز على ترسيخ أقدام الإمبراطورية فى الشرق اليونانى ، وتأسيس قاعدة قوية قادرة على المواجهة المؤثرة أمام الخطر الفارسى ، وفيما بعد أمام الخطر العربى الإسلامى ، وخير مجسد لهذا الاتجاه الإمبراطور هرقل فى القرن السابع .

وبعد فشل جستنيان فى محاولته الاستردادية للغرب الإمبراطورى ، والغزو اللومباردى لإيطاليا لم يعد إعادة تأسيس القوة الرومانية فى الغرب هدفا أوليا لأية حكومة بيزنطية ، بل يمكن القول بأنه مع وفاة جستنيان بدأت العناصر الرومانية فى المجتمع البيزنطى تفقد ما كان لها من أهمية بصورة سريعة ، وما أن جاء هرقل حتى أجهز على ما تبقى منها ، خاصة عندما تخلى عن اللقب الإمبراطورى الرومانى التقليدى ، وبدأ يلقب نفسه فى الوثائق الرسمية باللقب المجرد " إمبراطور Βασιλεύς " ، وأعاد الهيكلة الإدارية للإمبراطورية بما يتناسب مع الأوضاع السياسية والاقتصادية والإدارية الجديدة ، فأخرج نظاما بيزنطيا خلا أو كاد من أى أثر للنظام التقليدى القديم ،

---

(١) وأوضح الأمثلة على شرقيين تعلموا اللغة اللاتينية وتبنوا ثقافتها: الأنطاكى أميانوس مارسيللينوس Ammianus Marcellinus ، والسكندرى كلاوديان Claudian :

انظر الدراسة المتخصصة التى وضعها جيلبرت داجرون عن دور كلا من اللغتين فى العصر البيزنطى الباكر :-

Dagron , G:, "Aux origines de la civilisation byzantine :Langue de culture et langue d'état" , ***Revue Historique*** ccxli (1969) , pp.23-56.

وكما يقول الباحث روبرت برونينج Robert Browning ": لم يتبق فى القرن السابع من الميراث الرومانى سوى القانون الرومانى ، الذى أصبح يدرس فى ترجمات وتنقيحات يونانية ، والتصور المبهم لأصل السلطة الإمبراطورية فى السناتو والشعب والجيش ، والتى لم يكن أحد يتذكره إلا عندما يكون اعتلاء العرش غير مرتب قبلا ، والشعور بالتفوق الموروث على المجتمعات والجماعات السياسية الأخرى ، وأخيرا اسم "رومانى Ρωμαιος " [1].

ورغم أن كثيرا من العناصر الرومانية بدأت تفقد أهميتها فى بيزنطة منذ القرن السابع ، إلا أن نظرية العالمية الرومانية ظلت تمثل أساس الهوية السياسية للإمبراطورية البيزنطية ومواطنيها ، و ظل اسم "الرومان " مستخدما على مدار تاريخ الإمبراطورية من البيزنطيين أنفسهم كمصطلح يدل على هويتهم ، والمتصفح للنصوص والمصادر يلاحظ من الوهلة الأولى أنه لا تكاد توجد صفحة واحدة تخلو من هذا الاسم إشارة للبيزنطيين ، ومن الملاحظ أن استخدام هذا الاسم اقترن دائما بأيديولوجية البيزنطيين السياسية فى مواجهة الغرب الأوروبى ، أو بعبارة أخرى كمحاولة لمواجهة ادعاءات حكام الغرب فى كونهم ورثة الإمبراطورية الرومانية ، وبأنهم الوحيدين أصحاب الحق فى العرش والتاج وبالتالى فى السلطة الرومانية العالمية.

وقد تلقت النظرية السياسية البيزنطية أول ضربة خطيرة فى عام ٨٠٠م ، عندما توج شارلمان إمبراطورا على يد البابا ليو الثالث ، وإذا كان هذا الحدث يحمل مغزى خاصا للغرب يكمن فى تدشين تولى أوربا للسلطة كمفهوم سياسى ، إلا أنه شكل للبيزنطيين تهديدا مباشرا لهويتهم السياسية ، وتحديا سافرا لمفهوم الإمبراطور الواحد الذى يحكم إمبراطورية عالمية ، ورغم أن المشكلة تمت تسويتها بصورة جزئية ، إلا أن الأباطرة البيزنطيين الذين ظلوا حتى ذلك الحين يصفون أنفسهم باللقب المجرد "إمبراطور

(1) Browning , R.," The Continuity of Hellenism in the Byzantine World : Appearance or Reality?" , *Greece Old and New* , ed.T.Winnifrith &P.Murray , London , 1983 , pp.111-128 , repr.Idem , *History , Language and Literacy in the Byzantine World* , Northampton , 1989 , no.I.

Βασιλεύς " ، نادرا ما فوتوا فرصة بعد عام ٨١٢م إلا واستخدموا لقبهم الكامل "إمبراطور الرومان Βασιλεύς τών Ρωμαίων"[١].

(١) من الملاحظ أن شارلمان رغم تتويجه على يد البابا ليو الثالث "إمبراطورا للرومان" ، إلا أنه كان أكثر اعتدالا من البابا بخصوص وضعه الإمبراطورى ، ففى البداية حاول حل المشكلة مع البيزنطيين بطلب يد الإمبراطورة أيرينى للزواج ، غير أن الأخيرة عزلت على يد وزير ماليتها نقفور وقتما كان رسل شارلمان لا يزالون يتفاوضون معها ، ورفض خليفتها نقفور أية تسوية مع شارلمان تاركا الأمر لميخائيل الأول رانجابيه، الذى اعتلى العرش فى ثورة أخرى عام ٨١١م ، وفى عام ٨١٢م اتفق السفراء البيزنطيون فى أخن على أن يعيد شارلمان بعض الأراضى التى استولى عليها مؤخرا إلى إمبراطورهم ، لقاء الاعتراف به" إمبراطورا" Βασιλεύς ولكن ليس " للرومان" Βασιλεύς τών Ρωμαίων ، ورفعه إلى منزلة " الأخ الروحي" للإمبراطور الرومانى – البيزنطي- ، وكان هذا أفضل ما يمكن الحصول عليه بالنسبة لشارلمان، الذى سلم بإمبراطورية محدودة لا تتعدى حدود أراضى مملكته الإفرنجية ، وفى حياته فقط ، وقبل بأن ينزل خلفاؤه إلى مرتبة الملوك – وليس الأباطرة- فى أسرة الملوك الدائرة فى فلك ربها الإمبراطور البيزنطى Pater Familias ، ولضمان الفهم الكامل لكلا الطرفين ، حررت الاتفاقية باللغتين اليونانية واللاتينية ، غير أن أقصى ما خسره البيزنطيون فى هذا الاتفاق ، أنهم اضطروا للمرة الأولى إلى الاعتراف بوجود إمبراطور فى الغرب ، حتى وإن سلم هذا الإمبراطور بأنه ليس رومانيا ، أو قبل بألا يمتد هذا اللقب إلى خلفائه ، فمن جاء بعد شارلمان من الأباطرة لم يلقوا لهذا الاتفاق بالا ، واستمسكوا بحقهم – الذى منحتهم بيزنطة إياه وأيدتهم فيه البابوية- ، ولذلك لم يكن غريبا أن يحاول أباطرة بيزنطة وضع حدا فاصلا باستخدام لقبهم الكامل "إمبراطور الرومان" ، بل والأكثر دلالة هو ظهور لقب جديد استخدمه هؤلاء الأباطرة ما بين عامى ٨١٥-٨٥٥م ، تمييزا لمنزلتهم وعلو لقبهم على إمبراطور الغرب ، وهو "الإمبراطور الأعظم" Μέγας βασιλεύς .

Thepphanes , *The Chronicle of Theophanes Confessor : Byzantine and Near Eastern History AD. 284-813* , trans. C.Mango & R.Scott , Oxford , 1997 ,pp. 653-4 , 678 ; Treadgold , W., *The Byzantine Revival , 780-842* , Stanford , 1988 , 178ff ; Nicol , M. D. , " The Byzantine View of Western Europe " , ***Greek , Roman and Byzantine Studies*** 8 (1967) , pp.320-1.

عفاف صبره ، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان ، القاهرة ، ١٩٨٢ ، ١١٩-١٢٦

وعن نظرية " أسرة الملوك " و " رب الأسرة " البيزنطية ، انظر ،

Ostrogorsky ,. G., "The Byzantine Emperor and the Hierarchial World Order" , ***Slavonic and East European Review*** 24(1965) ,pp.1-14 , esp.pp.5-6,13.

وعن استخدام ميخائيل الثالث وباسيل المقدونى للقب " الإمبراطور الأعظم" على نقوش فى مدينتى نيقية وأنقرة ، انظر ،

Grégoire ,H., "Michel III et Basile le macédonien dans les inscriptions d'Ancyre", ***Byzantion*** 5(1930),pp. 327-46 , esp.pp.344-6.

وتوالت الضربات للنظرية السياسية البيزنطية من حكام الغرب الأوروبى ، بدايةً بتتويج أوتو الكبير Otto the Great وإحياء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب ، انتهاءً بإضفاء فردريك بربروسا صفة القداسة على هذه الإمبراطورية ، بحيث أصبحت منذ منتصف القرن الثانى عشر تحمل اسم " الإمبراطورية الرومانية المقدسة " ، وقد استفزت هذه الأحداث مشاعر البيزنطيين ، خاصة حكامهم والمؤرخين المعبرين عنهم ، فكان لزاما عليهم الدفاع عن رومانيتهم فى مواجهة الغرب الأوروبى ، الذي لم يترك هو الآخر أية فرصة إلا ولقب الإمبراطور الجالس على عرش القسطنطينية بلقب " ملك أو إمبراطور اليونانيين " ، ومن ثم شهدت المصادر البيزنطية خلال الفترة الواقعة ما بين القرن العاشر والثانى عشر الميلاديين ظهور قصة " الإمبراطورية المنقولة Translatio Imperii " على صفحاتها كأساس وبرهان لإثبات حق بيزنطة التاريخى فى وراثة الإمبراطورية الرومانية ، ففى القرن العاشر انفجر نقفور فوقاس غضباً فى وجه الوفد الذى حمل إليه رسالة البابا يوحنا الثالث عشر ، والذى خاطبه فيها بوصفه إمبراطور اليونان ، قائلاً : " أو لم يدرك ذلك الأب الأحمق أن القديس قسطنطين قد نقل إلى مدينتنا – يقصد القسطنطينية – مقاليد السلطة الإمبراطورية ومعها السناتو والجيش الرومانى ولم يترك فى روما غير العبيد وأبناء الزنا ؟! "[1]. وفى أوائل القرن الثانى عشر ، زاحت آنا كومنينا تعبر عن نفس المفهوم فى ذهن أبيها الإمبراطور الكسيوس كومنينوس ، معلنة أن السلطة الإمبراطورية مع السناتو والإدارة الرومانية بأكملها قد انتقلوا منذ وقت بعيد من روما القديمة ، إلى روما الجديدة[2].

وقد بلغ الصراع البيزنطى – الغربى على وراثة الإمبراطورية الرومانية سياسيا ذروته فى عصر الإمبراطور مانويل الأول كومنينوس ، الذى لم يكن ليفرط فى العقائد السياسية التى ورثها عن أسلافه، خاصة وأنه كان يدرك تماماً أنه أمام خصم عنيد ، غاية طموحه أن يصبح إمبراطوراً رومانيًا ، فعلاً وقولاً ، بل كان عليه أن يدافع عن منصبه الإمبراطورى فى مواجهة ادعاءات الإمبراطور الألمانى فريدريك بربروسا التى باتت تهدد أمن وسلامة

(1) Liutprando of Cremona , De Legatione Constantinopolitana , in : *the Works of Liudprando of Cremona* , trans.F.A.Wright , London , 1930 ,p. 265.

(2) Anna Comnena , *Alexiad* , p. 62 .

إمبراطوريته [١]، ويبدو أن مؤرخه وسكرتيره الخاص كيناموس كان بوقاً له فى الإعلان عن حقه فى كونه الإمبراطور الرومانى الشرعى ، ففى الكتاب الخامس راح كيناموس يناقش حملة بيزنطة ضد المجر فى عام ١١٦٢م ، وأشار إلى أن ملك المجر تلقى مساعدات من حاكم بوهيميا فلاديسلاف الثانى Vladislav II الذى تلقى منصبه الملكى من بربروسا ، وعند هذه النقطة ينفجر كيناموس فى ثورة غاضبة لمهاجمة ادعاءات بربروسا الزائفة فى صورة عبر عنها الباحث الكسندر بقوله: " غير معهودة فى الكتابات التاريخية البيزنطية "[٢].

لقد راح كيناموس يعلن أن منح اللقب الملكى لدوق بوهيميا على يد حاكم الهوهنشتاوفن أمر لا أساس له من الشرعية ، ومنذ السطر الأول للخطبة المسهبة التى خطها ليدحض مزاعم الإمبراطور الألمانى ، راح يؤكد على أنه بعد عام ٤٧٦م لم يعد هناك سوى إمبراطور شرعى واحد ، عاصمته القسطنطينية وليست روما التى يحكمها – منذ وقت رومولوس أوغسطولوس وحتى زمنه – برابرة متمردون ، ومن ثم فإن الشخص الوحيد القادر على منح مثل هذه الألقاب الملكية هو الإمبراطور الجالس على عرش القسطنطينية ، لأن هذه الألقاب تستمد فاعليتها من سلطته الإمبراطورية[٣].

---

(١) عن صراع مانويل الأول كومنينوس مع فردريك بربروسا على اللقب الإمبراطورى ، انظر ،
Classen , P. ," La Politica di Manuele Comneno tra Federico Barbarossa e le Città Italiane " , *Popolo e Stato in Italia nell' età di Federico Barbarossa. Relazionie Communi Cozioni al 330 Congresso Storica Subalpino* , Turin , 1970 , pp. 265-279 ; ; Lilie , R. J. , " Manuel I Komnenos und Friedrich I Barbarossa : Die Deutsche und die Byzantinische Italien Politik Während der Zweiten Hölfte des. 12 Jahrhunderts in der Neueren Literatur " , ***Jahrbuch der Österreichischen Byzantinistik*** 42 (1992) , pp. 157-170 .

عبد العزيز رمضان ، العلاقات البيزنطية اللاتينية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول كومنينوس (١١٤٣ – ١١٨٠م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة عين شمس ، ٢٠٠٠م ، ص.٦١– ٨٨.

(2) Alexander , J. , " The Donation of Constantine at Byzantium and Its Earliest Use Against the Western Empire " , ***Zbornik Radova Vizanto-loškog Instituta*** 8 (1963) , p.18 .

(3) Kinnamos , J., *Deeds of John and Manuel Comnenus* , trans. Ch.Brand , Newyork , 1976 ,pp.165-166.

وعلى هذا النحو ، يقدم لنا كيناموس مقدمة أراد بها إثبات حق بيزنطة التاريخى فى وراثة الإمبراطورية الرومانية ، وكمدخل لهدفه الرئيسى وهو السخرية من مغتصبى اللقب الإمبراطورى فى الغرب ، وهو بذلك يعبر – دون شك – عن وجهة نظر سيده الإمبراطور التى ورثها عن أسلافه وتشربها بكل قوة ، فيستطرد قائلاً : " ولم يكتف حكام الغرب بالاعتداء الوقح على هيبة المنصب الإمبراطورى عندما ادعوا لأنفسهم الحق فى السلطة الإمبراطورية ، بل كان لديهم من الوقاحة ما جعلهم يزعمون بأن الإمبراطورية فى بيزنطة تختلف عن تلك التى مقرها روما ، الأمر الذى جعلنى مدفوعاً للغثيان عدة مرات "[1]، ولم يكتف كيناموس بذلك بل راح يواصل حديثه برثاء متشرب بروح السخرية والتهكم من تلك الأحداث المخزية التى تجرى فى روما ، متسائلاً :- " أى رجل هذا الذى يدعى لنفسه الشرف الإمبراطورى ، ثم يحط من قدره بالعدو أمام أسقف يمتطى حصاناً ، ويعترف به سيداً له لقاء أن يمنحه هذا اللقب الإمبراطورى ، وكأنه بذلك يضعه على قدم وساق مع الإمبراطور الرومانى "[2].

ونستشف من الحديث الذى جرى به قلم كيناموس بأنه كان هناك ثمة شعور قوى ساد الدوائر الحاكمة فى بيزنطة بأن ادعاءات بربروسا باتت تشكل خطراً داهما يهدد حق الإمبراطور البيزنطى فى السيادة العالمية. ومن هنا نهض كيناموس للقيام بدور المتحدث الرسمى لتنفيد هذه الادعاءات الزائفة ، وتحذير البابوية من العواقب الوخيمة التى يمكن أن تترتب على إقرارها بهذه الادعاءات ، وعند هذه النقطة كان كيناموس هو أول بيزنطى يستخدم " هبة قسطنطين " التى تدعيها البابوية لإثبات حقها فى السيادة والسمو على السلطة الزمنية ، غير أن استخدام كيناموس لها كان مختلفا كل الاختلاف ، فمن وجهة نظره أن البابوية إن اعترفت بادعاءات إمبراطور الغرب فهى بذلك تتنصل من هبة قسطنطين ، وبالتالى تفقد حقها فى خدمات التبعية من جانب الإمبراطور[3]، فنجده يخاطب البابا قائلاً:- " أيها البابا ، إذا لم تسلم بأن العرش الإمبراطورى فى بيزنطة هو ذاته عرش روما ، فعلى أى أساس حظيت بشرف منصبك ؟! رجل واحد فقط هو الذى

(1) Ibid ,p. 166 .

(2) Ibid ,p. 166 .

(3) Alexander , *Donation* , pp. 19-22 .

منحك هذا الشرف ، هو قسطنطين ، المسيحى الأول من بين جميع الأباطرة ، فكيف إذن تتلقى هبة الكرسى البابوى بسموه الفائق ، وفى الوقت نفسه تنكر أن إمبراطور بيزنطة هو الإمبراطور الرومانى الشرعى ؟! لقد كان لزاما عليك أن تقبل الأمرين أو ترفضهما معا "[١]، وتتزايد نبرة كيناموس حدة عندما راح يعلنها صراحة ، أنه إذا كان للبابا الحق فى أن يبارك الجالس على العرش الإمبراطورى ويضع يديه على رأسه ، فإن ذلك لا يعنى أن من حقه ، أو حتى فى نطاق سلطته أن يمنح المنصب الإمبراطورى لأن البابا سيلفستر Sylvester نفسه لم يستطع التفوه بحرف واحد عندما نقل قسطنطين العظيم المنصب الإمبراطورى من روما إلى القسطنطينية ، رغماً عنه[٢]. وفى النهاية يختتم كيناموس حديثه إلى البابا قائلاً : - " أيها البابا ، إذا زعمت بأنك واقع تحت ضغط أو إكراه من جانب أحد - يقصد الملك الألمانى - فتلك حجة واهية ، فلا تكن على شاكلة الانتهازيين الذين يتلونون مع تقلبات الأحوال "[٣].

ولاشك فى أن تصور مانويل للسلطة الإمبراطورية والسيادة العالمية مستمد من الفكر السياسى البيزنطى الذى اعتنقه وتشرب به كل من جلس على عرش القسطنطينية ، حقيقة أن الإمبراطورية البيزنطية فى القرن الثانى عشر الميلادى لم تكن هى تلك التى كانت فى القرن الرابع الميلادى ، ولكنها مع ذلك ظلت متمسكة ، وعبر تاريخها الطويل ، بحقها فى كونها الوريثة الشرعية للإمبراطورية الرومانية ، وظلت فكرة أن إمبراطورها هو الإمبراطور الرومانى الشرعى هى القاعدة الأساسية ، من الألف إلى الياء ، فى جميع العقائد السياسية البيزنطية ، وقد عبر أوستروجورسكى Ostrogorsky عن ذلك بعبارة بليغة جاء فيها : " لا يجرؤ أحد على ازدراء الحقائق عندما تتناقض مع العقائد كالبيزنطيين، فحينما يتعارض الواقع مع عقائدهم، تنتصر العقائد "[٤].

وحتى فى أحلك فترات الإمبراطورية سواداً ، وقتما كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة ، ظل البيزنطيون متمسكين بحقهم فى كونهم الرومان الحقيقيين، وما عداهم مجرد برابرة

---

(1) Kinnamos , *Deeds* , *p.* 166 .

(2) Ibid , pp. 166-167 .

(3) Ibid , p. 167 .

(4) Ostrogorsky , *Hierarchial World Order* , p.5.

أجلاف، وظلت قصة الإمبراطورية المنقولة تشكل أساسا لإثبات حق بيزنطة التاريخى فى وراثة الإمبراطورية الرومانية فى مواجهة الغرب ، فقد راح البطريرك فيلوثيوس كاكينوس Philotheos Kakkinos [١]، وقت استيلاء الجنوية على هيرقلية Herakleia عام ١٣٥٢م، يدافع عن هذا الحق بقوله : " لقد نقلت إمبراطورية الرومان العظيمة من إيطاليا إلى الشرق عندما اهتدى قسطنطين العظيم بإرادة الرب من الهللينية إلى الإيمان المسيحى ، وشيد على أنقاض بيزنطة هذه المدينة العظيمة التى حملت اسمه ، ونقل السناتو من روما القديمة ليجعل من روما الجديدة صاحبة السيادة على كافة المدن الأخرى ، وهكذا استقرت الأمور، حتى عصر ليو الأرمينى ، الذى أدى بحربه المشئومة والشريرة ضد الأيقونات المقدسة إلى انقسام الكنيسة ، واختار أهل روما القديمة لأنفسهم ملكا بربريا من ألمانيا إمبراطورا لهم ، وادعوا أنهم الرومان ، فليعلموا أننا الرومان الحقيقيون ، وما يدفع الآخرين إلى الادعاء بكونهم رومانا إلا الحماقة وقصر النظر"[٢].

ومن الملاحظ أن البطريرك كاكينوس أشار فى حديثه إلى الهللينية فى مقابل المسيحية ، أى أنه يقرنها بالوثنية – وبطبيعة الحال يقصد الوثنية اليونانية– وراح يحدد هويته وقومه بالرومانية ، فهل يعنى ذلك أنه يعبر عن رؤية البيزنطيين كافة للهللينية ؟ وهل قصد بالرومانية هنا الهوية السياسية فقط ؟ أم أنها تتضمن أيضا المعنى العرقى والثقافى ؟

للإجابة على هذه التساؤلات ، قد يكون من الأفضل الرجوع بالزمن ثانية إلى الوراء ، وتحديدا عند نهاية القرن الرابع الميلادى ، حيث يمكن رصد تغيرات جذرية فى استخدام البيزنطيين لمصطلحات "رومانى" Rhomaios (Ρωμαιος) و " هللينى" Hellene (Ἑλλην) ، ففى الوقت الذى اتسع مدى استخدام الأول ليستخدم دون تمييز فى كافة أراضى الإمبراطورية ، بعد أن فقد دلالته الاثنية ، وأصبح من الآن فصاعدا مصطلحا ذا دلالة سياسية ، إلا أن اقتران الدولة بالدين ، أى الإمبراطورية الرومانية بالديانة المسيحية،

---

(١) بطريرك القسطنطينية (١٣٥٣-١٣٥٤م \ ١٣٦٤-١٣٧٦م) ، كان أسقفا لهرقلية وقت استيلاء الجنوية عليها ، وكتب وصفا حيا لتدميرها ، لمزيد من التفاصيل انظر ،
دونالد نيكول ، معجم التراجم البيزنطية ، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ، ص٤١.

(2) Nicol , *Byzantine View* , p.324 .

جعلت انتماء الفرد إلى الإمبراطورية العالمية يستلزم اعتناق ديانتها الرسمية، ومن هنا أصبح مصطلح "رومانى" ذو دلالة دينية أيضا .

وعلى الجانب الآخر ، فقدت مصطلحات " هللينى " Hellene (Ελλην) كاسم، و"يتحدث اليونانية " (Ἑλληνίζειν) كفعل ، بدورها دلالاتها الاثنية والثقافية ، واقتصر استخدامها، خاصة خلال الفترة المبكرة من التاريخ البيزنطى ، على دلالتها الدينية ، فى البداية للإشارة إلى الطبقة العليا التى ظلت على تعلقها بالديانة اليونانية القديمة ، ثم بعد التحول الكامل إلى المسيحية للإشارة إلى أى شخص وثنى ، سواء أكان يتحدث اليونانية أم لا ، وتجاوز استخدام اسم "هللينى" للإشارة إلى الخارجين عن دائرة المسيحية من كل نوع: ففى أواخر القرن السادس استخدمه إفاجريوس للإشارة إلى العرب لأنهم وثنيون[١]، وفى القرن الثامن استخدمه البطريرك نيقفور للإشارة إلى المسلمين عندما كتب أن الإمبراطور هرقل أطلق على والى مصر كيروس Κυρος " أنه هللينى ελληνα لأنه أوصى بخطبة ابنة الإمبراطور لأمبروز Αμπρος– ولعله يقصد عمرو بن العاص – قائد السراكنة Σαρακηνοι ، الهللينى ελληνι، عدو الرب والمسيحيين "[٢]، كذلك استخدم للإشارة إلى الثنويين Manichaeans ، واللاأيقونيين[٣] Iconoclasts ، والسامريين Samaritans، واللوطيين Sodomites ، وكذلك اليهود[٤].

---

(1) Evagrius , *Historia Ecclesiastica* , ed.J.Bidez & L.Parmentier , London , 1898 , p. 238.

(2) Nicephoros Patriarch of Constantinople , *Short History* , ed.& trans. C.Mango , Washington , D.C., 1990 , pp. 74-5.

(3) Ibid ,pp. 152-3.

حيث يشير البطريرك نيقفور إلى اللاأيقونية على أنها هللينية ثانية ελληνισμοῦ δευτέρου أخذت تنتشر بين المسيحيين.

وفى القرن التاسع وصف إجناتيوس الشماس اللاأيقونية بأنها " خرافة هللينية".

Ignatios the Deacon , *The Life of tShe Patriarch Tarasios (BHG 1698)* , ed. & trans. S.Efthymiadis , Aldershot , 1998 , p. 185.

(4) Garzya , A., "Byzantium" , *Perceptions of the Ancient Greeks* , ed.K.J.Dover , Oxford , 1992 , pp. 29-53 , esp. p.29.

ففى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر استخدم البطريرك أثناسيوس الأول مصطلح "هللينيين" Ελλησιν للإشارة إلى الوثنيين كما استخدمها فى مناسبتين مصاحبة لاسم "اليهود" فى مقابل

ورغم اقتران اسم هللينى بالوثنية ، إلا أن هناك شواهد تشير إلى استمرار استخدامه بدلالة اثنية، ففى القرن السادس استخدمه بروكوبيوس للإشارة إلى سكان اليونان[١]، وفى القرن السابع أكدت معجزات القديس ديمتريوس على الدلالة الاثنية لاسم "هللينى"، عندما استخدمته للإشارة إلى سكان الجزء الرئيسى من اليونان عند بداية القرن السادس[٢]، وحولية مونيمفازيا فى القرن العاشر تحدثت بوضوح عن "السكان الهللينيين"[٣] Ἑλληνικα ἐθνη. وفى فقرة وردت فى كتاب " عن الإدارة الإمبراطورية " جمع قسطنطين السابع بين الدلالتين الدينية والاثنية لهذا الاسم : "إن سكان مدينة ماينا Maina ليسوا من سلالة السلاف Σκλάβων السالفين الذكر ، بل من سلالة الرومان الأقدمين Ρωμαίων ، ورغم ذلك يدعوهم السكان المحليون حتى اليوم باسم هللينيين Ἕλληνες ، ذلك لأنهم فى العصور الضاربة فى القدم كانوا وثنيين وعابدين للتماثيل على شاكلة الهللينيين القدماء "[٤]، وفى القرن الثانى عشر أشارت محاورة تيماريون ، المنسوبة إلى نيقولاس كاليكليس Nicholas Callicles ، الهللينيين الذين توافدوا من كل صوب وحدب على سوق القديس ديمتريوس التجارى فى سالونيك ، كما أشارت إلى أن اياكوس Aeacus ، عكس الكريتى مينوس Minos الذى لم يكن من سلالة إغريقية ، كان "هللينيا" – بالمعنى الاثنى الحقيقي– من تساليا Thessaly.[٥]

المسيحيين **Ἑλλήνων καί Ἰουδαίων** ، **Ἰουδαίοις καί Ἕλλησι** ، هذا رغم انه استخدمه فى موضع آخر بدلالة عرقية عندما يشير إلى " فوبيوس Phoebus العظيم بين الإغريق" .

The Correspondence of Athanasius I Patriarch of Constantinople : Letters to the Emperor Andronicus II , Members of the Imperial Family , and Officials , ed.& trans. A.M.Talbot ,Washington , D.C.,1975 , pp. 112-13 ; 48-9 , 102-3 ; 150-1.

(1) Charanis , P.," The Formation of the Greek People" , ***Byzantina Kai Metabyzantina*** , vol. I (= *The "Past" in Medieval and Modern Greek Culture* , ed.S.Vryonis) , Malibu , 1978 , pp. 87-101 , 88.

(2) Acta S.Demetri , ***PG*** CXVI , 1293.

(3) Dujčev , I., *Cronaca di Monemvasia* , Palermo , 1976 , pp.xxvi ff.

(4) Constantine Porphyrogenitus , *De Administrando Imperio* , ed.G.Moravcsik , trans R.Jenkins, vol.I , Budapest , 1949 ,p. 50.

(5) *Timarion* , trans.B.Baldwin , Detroit , 1984 , pp.44 , 61.

كذلك تسجل لنا المصادر عددا من الحالات التى استخدمت فيها مصطلحات أخرى مماثلة بدلالة اثنية، منها مصطلح " إغريقى " Graikos (Γραικός) ، فبريسكوس البانيونى Priscus of Panion كتب عن شخص يونانى تزوج وعاش عدة سنوات فى منطقة اليونان ، أنه ظل "يتحدث اليونانية" Ἑλληνίζειν τη Φωνη ، وظل يعلن أنه "إغريقى" ἔλεγε Γραικος μένε ίναι το γένος،[1] وبالإضافة إلى مصطلحات "هللينى" و "إغريقى" ، عاد مصطلح "هيلادى" Helladikos (Ἑλλαδικος) ، الذى يرجع تاريخه إلى العصور القديمة الباكرة ، إلى الظهور بدلالة اثنية ، بعد أن كان يحمل فى العصور الكلاسيكية مفهوما جغرافيا صرفا ، فالحولية الفصحية Chronicon Paschale فى منتصف القرن السابع ، لجأت إلى حل وسط للتسوية بين المصطلحين "هللينى" و"هيلادى" ، حيث أشارت إلى الإمبراطورة أثينايس-يودوكيا Athenais-Eudocia ، زوجة ثيودوسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠م) ، على أنها "هيلادية" لكونها أثينية الأصل، و"هللينية" لأنها كانت وثنية قبل زواجها من الإمبراطور[2]. ومع نهاية القرن السابع ، وقت تحول إقليم اليونان البيزنطى إلى ثيم هيلاس Hellas ، أصبح مصطلح "هيلاديين" Helladikoi مستخدما للإشارة إلى سكانه[3]، كذلك نجد مصطلحا آخر مماثلا استخدمه قسطنطين السابع فى كتابه "عن الثيمات De Thematibus " ، وهو " الآخيين" Achaioi (Αχαιοι) ، كبديل لـ " هللينى" ، للإشارة إلى سكان البلوبونيز Peloponnese.[4]

ومما سبق يتضح أن هناك عدد من المصطلحات استخدمها البيزنطيون للإشارة إلى هويتهم ، وأن هذه المصطلحات تغيرت مدلولاتها بتغير الظروف ، وكان التحول الأول

---

(1) Priscus of Panion , ed. F.Bornmann , Florence , 1979 , p. 46.

(2) *Chronicon Paschale 284-628 AD* , trans.M.& M.Whitby , Liverpool , 1989 , pp. 67 - 8.

ومن الملاحظ أن الحولية الفصحية استخدمت دوما مصطلح"هللينى" بدلالته الوثنية ، انظر ، Ibid , pp. 50 , 78 , 87 .

(3) Charanis , P., "The Term *Helladikoi* in Byzantine Texts of the Sixth , Seventh and Eighth Centuries" , ***Epeteris Etaireias Byzantinon Spoudon*** 23(1953) ,pp. 615-20 , repr.Idem , *Studies on the Demography of the Byzantine Empire* , London , 1972 , no.17.

(4) Constantine Porphyrogenitus , *De Thematibus* , ed. Pertusi , Vaticano ,1952 ,p. 90.

عند الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية ، حيث أدى اقتران الدولة رسميا بالدين الجديد وتخليها عن الديانة الوثنية ، إلى تغير مدلول مصطلحات " رومانى " و"هللينى" ، ففى الوقت الذى أصبح الأول يستخدم للإشارة إلى الفرد المنتمى سياسيا للإمبراطورية الرومانية ، ودينيا للمسيحية ، غدا الثانى يحمل مدلولا دينيا ، ويستخدم للإشارة إلى الوثنيين وغيرهم من الخارجين عن دائرة المسيحية ، وفى الوقت الذى فقد فيه المصطلحان أية دلالة عرقية داخل مركز الإمبراطورية والمناطق المتاخمة لها ، ظلت للمصطلح الثانى – كما يبدو – دلالته الاثنية فى المناطق البعيدة عن المركز ، خاصة – كما تشير الشواهد السابقة – فى مناطق اليونان القديمة الرئيسية ، و أضيفت إليه مصطلحات مماثلة ، بعضها مستوحى من العصور الكلاسيكية اليونانية مثل: "هيلادى" و"الآخيين"، بدلالة إثنية كاملة ، وظل الأول – على الأرجح – غير مستخدما فى هذه المناطق .

ومن ناحية أخرى ، يمكن القول بأن استخدام كل من هذين المصطلحين ارتبط دوما بمقتضيات الصراع مع الآخر ، وكما ظهر سابقا أن استخدام مصطلح " رومانى " من قبل البيزنطيين اقترن بحاجتهم لمواجهة الآخر ، والآخر هنا ممثلا فى قوى سياسية أخرى ادعت لنفسها الحقوق والسلطات الواسعة لوراثة الإمبراطورية الرومانية ، كذلك اقترن استخدام مصطلح "هللينى" ، أو غيره من المصطلحات المشابهة ، بحاجة البيزنطيين لتحديد هويتهم الاثنية والثقافية الخاصة، والتأكيد على أنهم لم يتخلوا عن هويتهم اليونانية غير القابلة للجدل ، فى مواجهة الآخر، والآخر فى هذه الحالة ممثلا فى العناصر والجماعات الاثنية العديدة التى قطنت أراضى الإمبراطورية ، والشعوب المعاصرة والمجاورة للبيزنطيين أصحاب الهويات الاثنية والثقافية المتباينة ، وتتزايد هذه الحاجة كلما شكلت هذه الجماعات والشعوب خطرا على هوية البيزنطيين ، وعلى ذلك يمكن القول بأن استخدام البيزنطيين للمصطلحين "رومانى" و"هللينى" لا يشير إلى وعى متناقض ، أو لا وعى ، بهوية خاصة مميزة ، و إنما يشير إلى وعى بهوية مزدوجة " رومانية" و"يونانية" ، كل منها أدى دورا خاصا به "سياسيا" و" اثنيا" و ثقافيا" .

لقد اصطبغت الإمبراطورية البيزنطية ، خاصة عاصمتها ، عبر تاريخها الطويل بصبغة عالمية، ومثلت أراضيها ومؤسساتها العسكرية والتجارية مرتعا ومصدرا لجذب الأجانب

من شتى الأنحاء ، هذا إلى جانب كونها إمبراطورية مترامية الأطراف ، ضمت مساحات واسعة قطنتها جماعات اثنية عديدة ، كالأرمن والبلغار والسلاف والأتراك واللاتين وغيرهم ، وداخل صفحات المصادر البيزنطية يلاحظ المرء أن هذه الجماعات ظل يشار إليها بأسمائهم الاثنية وليس كرومان أو هللينيين ، و إن كانوا قد انضووا فى بعض الحالات القليلة تحت المسمى الأول ، فالجيش البيزنطى – على سبيل المثال– ذكر دوما فى المصادر البيزنطية على أنه " جيش الرومان " ، ولا يعنى هذا بالضرورة أن كل أفراده من البيزنطيين، كما استخدم مصطلح εθνικόι " الأجناس" للإشارة الاثنية إلى كافة العناصر الأجنبية[١]. أما من الوجهة الثقافية ، فقد أشير إلى هذه العناصر الأجنبية بمصطلحات عديدة ، تعكس عقدة البيزنطيين التقليدية فى التشامخ على غيرهم من الشعوب والأجناس ، وكان مصطلح "برابرة " βάρβροι الأكثر استخداما وشيوعا وشمولا لكافة الأجانب ، و إلى جانبه استخدم مصطلح " سكيزى " Σκύθης بمعنى أجنبى أو غريب[٢].

ووسط الأقليات الأجنبية العديدة التى قطنت أراضى الإمبراطورية ، كان لدى مواطنيها ، أو على الأقل المثقفين منهم ، وعى كامل بأنهم يشكلون شعبا مختلفا عن هذه الأقليات ، شعب له هويته الاثنية والثقافية واللغوية الخاصة ، هوية تميزه عن غيره من الشعوب الأخرى ، ويظهر ذلك بوضوح تام عند تصفح أية دراسة تتناول علاقات الإمبراطورية بأى من هذه الشعوب .

كذلك هناك وفرة فى النصوص الدالة على هذا الأمر داخل صفحات المصادر البيزنطية ، وحتى لا تأخذنا هذه النصوص بعيدا عن مهمة البحث الرئيسية ، سيكتفى

---

(1) هناك مصطلحات أخرى مشابهة ، مثل εθνος الذى استخدم لتمييز سكان الأقاليم (εθνος Φρυγωνالشعب الفريجى ، الشعب الكبادوكى εθνος Καππαδοκων ، الخ) ، و ξένος وεξωτικός للإشارة إلى الغرباء عن المواطنين المحليين داخل أحد الأقاليم ، واستخدم المصطلح الأخير أيضا، و εξω Ρώμης للإشارة إلى الغرباء عن العاصمة. عن هذه المصطلحات ، انظر،

Ahrweiler , H., "Byzantine Concepts of Foreigner : the Case of the Nomads" , *Studies on the Internal Diaspora of the Byzantine Empire* , eds. H.Ahrweiler & A.Laiou , Washington , D.C., 1998 , pp. 1-16 , esp. pp.2-3.

(2) Ibid ,p. 2.

الباحث بانتقاء أكثرها دلالة ، خاصة تلك التى ارتبطت بحاجة البيزنطيين إلى تحديد هويتهم فى مواجهة الآخر. ففى القرن الحادى عشر أبدى بسللوس انزعاجه الشديد من غطرسة "بربرى " حقق نفوذا ملحوظا فى بيروقراطية القسطنطينية، واعتاد أن يقول وهو يشير إلى يده اليمنى " إنه صافح بهذه اليد أباطرة الرومان مرات عديدة "، ويستطرد بسللوس "سمعته ذات مرة يلفظ بهذه الكلمات ، فاعترانى استياء عارم، وكدت أخنق هذا البربرى المتغطرس بكلتا يداى ، إن صدمتى من هذه الكلمات كانت أكبر من أى قدرة على الاحتمال"[١]، و إذا كان بسللوس لم يحتمل وجود أجنبى بالقرب من أباطرة القسطنطينية، فإنه كان أكثر استياء من أجنبى آخر ترأس شعب القسطنطينية الثائر ضد ميخائيل الخامس عام ١٠٤٢م عندما أقدم على عزل الإمبراطورة زوى ، ولذلك لم يستخدم كلمة " بربرى " فقط ، بل أضاف "لقد اختاروا لهم قائدا لم يكن هللينى السلالة γένος οὐκ Ἕλληνα ".[٢]

ومن الملاحظ هنا أن بسللوس استخدم مصطلح هللينى بمعناه الاثنى. حقيقة أن المصطلح بمعناه الاثنى تردد -- كما ذكر سابقا – فى ثنايا بعض المصادر للإشارة إلى سكان أحد أقاليم الإمبراطورية ، إلا أن الجديد فى استخدام بسللوس له هو أنه جاء كرد فعل من قبل بيزنطى لتحديد هويته فى مواجهة أجنبى شكل- من وجهة نظره – خطرا وتهديدا مباشرا له ، والأكثر أهمية أن استخدامه جاء إشارة إلى البيزنطيين كافة ، وليس لسكان إقليم بعينه من أقاليم الإمبراطورية ، أو كما تشير أنيترا جادولين Anitra Gadolin " أن بسللوس يربط إغريق عصره بالإغريق القدماء"[٣].

وإذا كان استخدام بسللوس لمصطلح هللينى بمعناه الاثنى للإشارة إلى البيزنطيين كافة يعد من الاستخدامات الأولى له ، فإن هذا الاستخدام شاع خلال القرن الثانى عشر

---

(1) Psellos , M., *Fourteen Byzantine Rulers : the Chronographia of Michael Psellos* , trans. E.R.A.Sewter , London , 1953 , p.169.

(2) Ibid ,p. 36.

(3) Gadolin , A., *A Theory of History and Society with Special Reference to the " Chronographia " of Michael Psellus* , Stockholm , 1970 , pp. 209f.

الميلادى ، بل وتجاوز هذا الاستخدام معناه الاثنى ليشمل أيضا المعنى الثقافى ، بعد أن أصبح أساسا لتحديد الهوية البيزنطية فى مواجهة العنصر اللاتينى .

لقد فرضت تطورات الأحداث منذ القرن الثانى عشر ، خاصة نصفه الثانى ، على البيزنطيين تحديا خطيرا من الآخر ، ومن ثم باتت هناك حاجة ماسة إلى تحديد هويتهم أمام مد الآخر ، خاصة عندما بدأ الآخر يتغلغل بنفوذه فى قلب حياة العاصمة السياسية والاقتصادية والدينية ، ولما واتته الفرصة انتهزها – بكل فخر – ليلتهم العاصمة بأكملها عام ١٢٠٤م ، ولذا لم يكن غريبا أن تصبح كراهية المجتمع البيزنطى الكامنة للأجانب Xenophobia ، موجهة منذ ذلك الحين إلى اللاتين بصفة خاصة .

ولم يكن الصدام البيزنطى – اللاتينى وليد القرن الثانى عشر ، بل لقد فرضت مجريات الأحداث على البيزنطيين واللاتين منذ أمد بعيد أن يسيروا فى اتجاهين متباعدين ، وكلما دفعهم أمر ما إلى الاتصال ، تكون النتيجة الحتمية هى الصدام ، ويؤكد ذلك سلسلة من الأحداث بدأت بالأزمة اللاأيقونية [١]، ثم إحياء اللقب الإمبراطورى فى الغرب ، فالانشقاق الدينى[٢]، مرورا بتعاظم الخطر النورمانى على أراضى الإمبراطورية[٣]،

---

(١) عن بيزنطة والغرب الأوروبى خلال الأزمة اللاأيقونية ، انظر ،

Miller ,D.H., " The Roman Revolution of the Eighth Century : the Ideological Background of the Papal Separation from Byzantium and Alliance with the Franks ", ***Medieval Studies*** 36(1974) , pp.78-133 ;Llewellyn , P., " The Roman Church on the Outbreak of Iconoclasm ", Iconoclasm , ed,A.Bryer & J.Herrin , Birmingham , 1975 , pp.7-14.

(٢)عن الانشقاق الدينى بين كنيستى القسطنطينية والبابوية ، انظر ،

Runciman , S., *The Eastern Schism : a Study of the Papacy and the Eastern Churches during the XIth. And XIIth.* Centuries , Oxford , 1956 .

(٣)عن الصراع البيزنطى – النورمانى ، انظر ،

Loud , G. A. , " Byzantine Italy and the Normans " , *Byzantium and the West* , C. 850-1200 , ed. J.D. Howard-Johnston , Amsterdam , 1988 , (= ***Byzantinische Forschungen*** 13) pp. 215-234 ; Mcqueen , W. B. , " Relations between the Normans and Byzantium , 1071-1112 " , ***Byzantion*** 56 (1986) , pp. 424-476 .

نبيلة إبراهيم مقامى ، العلاقات بين الدولة البيزنطية والنورمان فى جنوب إيطاليا وصقلية من ١٠٢٥ – ١١٩٧م ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب – جامعة عين شمس، ١٩٨٩م.

والاستغلال التجارى لمدن إيطاليا التجارية[١]، ولم يؤد ذلك سوى إلى زيادة قناعة البيزنطيين بأنهم شعب مختلف تماما عن اللاتين ، مختلف عنهم فى لغته وثقافته ونمط حياته، وبالإجمال فى هويته، ثم جاءت تجربة الحركة الصليبية ، والتى تحمل الشعب البيزنطى خلالها الكثير من الإهانة وتكبد الخسائر الفادحة على يد الصليبيين ، لتسهم فى تقوية الشعور البيزنطى بالكراهية و التشامخ على كافة شعوب الغرب بوصفهم شعب الله المختار ، وقد أثيرت عقدة التشامخ هذه أكثر من كونها أحدثت مع الاحتكاك المباشر بممثلى الغرب اللاتينى الذين توافدوا على الإمبراطورية فى أعداد كبيرة خلال القرن الثانى عشر ، سواء فى صورة صليبيين أو تجار أو جنود مرتزقة، وسرعان ما عبرت كراهية البيزنطيين الدفينة للاتين عن نفسها فى مذبحة دموية للاتين المستوطنين بالعاصمة عام ١١٨٢م[٢]، والأهم من ذلك أن الحركة الصليبية ضخمت من هوة اللاتفاهم ، وأكدت أوجه الخلاف ودعمت الشقاق الإيديولوجى بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى ، وبدا قادتها وجنودها فى أعين المجتمع البيزنطى كنوع غريب وهمجى من البشر ،حثالة يتكلمون لغة غير مفهومة، لا يتسمون بشىء سوى الجشع وسوء السلوك، ولديهم تيه بالنفس لا يحتمل ، ومن ثم بدأ هذا المجتمع فى شحذ أسلحته ، وأصبح حريصاً على

---

(١)عن التجارة الإيطالية فى الأراضى البيزنطية ، انظر ،

Lilie , R. J. , *Handel und Politik Zwishen dem Byzantinischen Reich und den Italienischen Kommunen Venedig , Pisa und Genoa in der Epoch der Komnenen und der Angeloi , 1081-1204* , Amsterdam , 1984 ; Nicol , D.M., *Byzantium and Venice: a study in Diplomatic and Cultural Relations* . Cambridge , 1988 , Day, G., *Genoa's Response to Byzantium , 1155-1204 : Commercial Expansion and Factionalism in a Medieval City* , Urbana / Chicago , 1988 .

حاتم الطحاوى ، بيزنطة والمدن الإيطالية (١٠٨١-١٢٠٤م) ، القاهرة ، ١٩٩٨م ؛ عادل زيتون ، العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطى والغرب اللاتينى فى العصور الوسطى ، دمشق ، ١٩٨٠.

وعن العلاقات البيزنطية- اللاتينية عبر هذه الفترة الطويلة ، انظر الدراسة المتميزة ،اسحق عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قنسطنطين ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

(2) Garland , L. , " Political Power and the Populace in Byzantium Prior to the Fourth Crusade " , ***ByzantinoSlavica*** 53 (1992) , p. 36 .

تضامنه فى وجه زمرة معادية عُرفت باللاتين ، نوع من الناس يختلف تماما عن الرومان الحقيقيين المتحدثين باللغة اليونانية [١].

ومن اليسير تماماً حصد وجهات نظر الطبقة المثقفة من المجتمع البيزنطى لإظهار المدى الذى وصل إليه النفور من اللاتين ، فنيقتاس الخونياتى راح يؤكد على التباعد التام بين البيزنطيين واللاتين بقوله : " بيننا وبين اللاتين هوة سحيقة ، فنحن أقطاب مستقلة ، لا يجمعنا بهم أى فكر مشترك ، فهم متكبرون متغطرسون ، يستهويهم الاستهزاء بلطف واعتدال عاداتنا ، لكننا ننظر إلى جهلهم وغطرستهم كتدفق المخاط الذى يجعل أنوفهم فى الهواء "[٢]، وفى الوقت نفسه عبر نيقتاس عن اشمئزازه من أولئك الأقزام ، أنصاف

(1) Nicol , *Byzantine View* , p. 339 .

كذلك أحدث تغلغل اللاتين فى حياة العاصمة السياسية والاقتصادية والدينية ردود فعل عنيفة بين مختلف طبقات وفئات المجتمع البيزنطى ، ويكفى أن نتصفح روايات اللاتين المعاصرين لندرك إلى أى مدى وصل الاستياء البيزنطى من اللاتين ، وقد عبر المؤرخ الصليبى وليم الصورى عن ذلك بقوله : " لقد أدت رعاية مانويل للاتين أن توغرت ضدنا صدور أشراف بيزنطة لاسيما أقارب الإمبراطور الأدنون، وعششت البغضاء فى نفوس غيرهم ، وامتلأت القلوب كلها بالحقد الأسود الذى لا تنحل عقدته " ، وهو الأمر الذى راح هوجو اتريانوس يؤكده بقوله : " لقد أصبح يُشار إلى اللاتين فى شوارع العاصمة كأشياء تثير المقت والكراهية ".

وليم الصورى ، الحروب الصليبية ، ج٤ ، ص ٢٧٤ .

Angold , M. , *Church and Society in Byzantium under the Comneni* , Cambridge , 1995 , p.513 .

(٢) تناول الباحث بالتفصيل تغلغل النفوذ اللاتينى فى مختلف نواحى حياة العاصمة البيزنطية ، الاقتصادية والسياسية والإدارية والاجتماعية وحتى الدينية، وموقف المجتمع البيزنطى بمختلف فئاته وطبقاته ، فى الفصل الرابع من رسالته للماجستير ، والذى يحمل عنوان " اللاتين فى بيزنطة " ، انظر ،

عبد العزيز رمضان، العلاقات البيزنطية اللاتينية ، ص١٠٤-١٣٠ .

وعن تأثير الحركة الصليبية على نظرة البيزنطيين للاتين ، انظر ،

Charanis , P., " Aims of the Medieval Crusades and How They were viewed by Byzantium " , *Church History* 21 , (1952) , pp. 123-134 ; Daly , W. M. , " Christian Fraternity , the Crusaders and the Security of Constantinople , 1097-1204 " , *Medievalia et Humanistica* 22 , (1960) , pp. 41-91 .

رأفت عبد الحميد ، "بيزنطة وخيانة القضية الصليبية" ، بحث منشور فى كتاب قضايا من تاريخ الحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٩٨؛ جوان هسى ، " بيزنطة والحروب الصليبية ١٠٨١-١٢٠٤م" ، ترجمة وتعليق.عبد العزيز رمضان ، منشور ضمن كتاب : تاريخ الحروب الصليبية بإشراف كينيث سيتون ،

المتحضرين ، المتسمين بالغرور ، والذين نعموا فى المنح الإمبراطورية فى وقت اضطر رعايا الإمبراطور الحقيقيين إلى الارتشاء من وظائفهم ، وانتقد الإمبراطور لأنه وضع هؤلاء البرابرة الجهلة فوق الرومان المثقفين فى الإدارة المحلية ، ومنحهم إقطاعات البرونويا ، فى وقت اضطر الشرفاء إلى العمل لديهم كخدم[١]، كذلك راح كيناموس يصفهم بالفجور الأخلاقى قائلاً :- " سوقيون غير موثوق فيهم ، يتصفون بكافة الخصال البذيئة للمشتغلين بالبحر ، ثرواتهم تزيد من طمعهم وعجرفتهم ، يسيئون معاملة كثيرين من النبلاء ويعتدون عليهم ، ومن بينهم أقارب الإمبراطور نفسه "[٢].

وإذا كان ذلك موقف الطبقة المثقفة فى المجتمع البيزنطى ، فإن شعب القسطنطينية بمختلف فئاته وطوائفه كان أكثر تعصبا فى موقفه العدائى من اللاتين ، حيث اعتبرهم حثالة من البشر ، أشد ما حز فى نفسه رؤية ما يتمتعون به من امتيازات وما بحوزته من ثروات، وراح التجار والصناع ، تحت وطأة المنافسة القاسية للتجار اللاتين ، يعارضون العنصر اللاتينى وينتظرون بفارغ الصبر يوم خروجه من الإمبراطورية بلا عودة[٣]، كما شعرت الطبقة البيروقراطية بالاستياء العميق من وجود جماعة ضغط لاتينى فى البلاط البيزنطى امتلكت تقريبا أُذن الإمبراطور ، وتوجست خيفة من كونها لن تستطيع ممارسة نفوذها التقليدى لدى الإمبراطور [٤]، وهذا الاستياء عُبر عنه بقوة فى رسالة كتبها الأسقف البيزنطى جورج تورنيكوس George Tornikos رئيس أساقفة أفسوس فى عام ١١٥٠م بعد ما فشل فى مساعيه للحصول على وظيفة لعمه فى البلاط الإمبراطورى ، حيث جاء فيها : " لا أكاد أصدق أن محباً للهلينية والحرية ، يُدرج هللينيا مع برابرة ، أو

تحرير سعيد البيشاوى و محمد مؤنس عوض ، رام الله ، ٢٠٠٤م ، ص٢٩٤-٣٣٢ ؛ عبد العزيز رمضان، العلاقات البيزنطية اللاتينية ، ص٢٦-٥٠.

Choniates , N., *O City of Byzantium : Annales of Nicetas Choniates* , trans. H.Magoulias , Detriot , 1984 , p. 167 .

(1) Ibid . pp. 38-39 .

(2) Kinnamos , *Deeds* , pp.209-210 .

(3) Brand ,Ch., *Byzantium Confronts the West , 1180-1204* , Cambridge , Mass. , 1968 , p.12

(4) Angold ,A., The *Byzantine Empire , 1025-1204 : A Political History* , London , 1984 , p. 204 .

يُدرج رجلاً حراً مع أناس هم عبيد بالفطرة ، ولا أكاد أطيق صنفاً من الناس فى علاقات طيبة مع البرابرة فيفضلونهم على الهللينيين ، زاعمين أن الهللينى رغم كونه بطلاً ومحباً للموساى (ربات الفنون) وهرميس أقل الطرفين شأناً "[١]. كذلك راح يوحنا أبوكاوكوس John Apokaukos يشير إلى اللاتين فى أعقاب الحملة الصليبية الرابعة بقوله : " الوحوش والثعابين البرية التى تود أن تسحقنى ، أنا الهللينى ، بين أسنانها "[٢].

ويعد هذا هو أول استخدام واضح لكلمة هللينى بمدلولاته الاثنية والثقافية فى مواجهة الغرب الأوروبى ، فما دلالة هذا الاستخدام ؟ أهى محاولة من جانب البيزنطيين للتنصل من هويتهم كرومان ؟ أم محاولة لإعادة تحديد هويتهم ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما دافعهم إلى ذلك ؟

بداية ينبغى الإقرار بأن الحركة الصليبية قد أضفت على تجمع سكان الغرب الأوربى هوية موحدة ، وأن انضواءهم تحت راية الصليب كان أمراً مروعاً للشعب البيزنطى الذى بات لزاما عليه أن يحدد هويته فى مواجهة هذا المد اللاتينى، ولم يكن الكتاب البيزنطيون عند تسمية أنفسهم هللينيين يتنصلون من هويتهم كرومان ، بل رغبوا فى تمييز أنفسهم عن اللاتين الذين ادعوا أنهم أيضا رومان والتأكيد على أن ما يميز البيزنطيين عن غيرهم ، ليس لأنهم روماناً فقط بل زادوا على ذلك بأن ثقافتهم هللينية[٣]، كذلك لا شك فى أن لجوء أهل الفكر فى بيزنطة إلى تحديد هويتهم فى مواجهة تهديد المد اللاتينى ، وحنينهم إلى أثينا القديمة وتفضليهم اسم هللينى كان لتأكيد الهوة السحيقة لحالة اللا انسجام القائمة بين البيزنطيين واللاتين ، وأنهم يمثلون شعبين متباعدين ومختلفين ، لغة وثقافة وهوية[٤].

وإذا كانت الحركة الصليبية وتغلغل النفوذ اللاتينى فى حياة العاصمة خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر قد فرض على البيزنطيين شعورا بالخطر من الآخر ، وهذا

---

(1) Angold , *Church and Society* , p.512 .

(2) Magdalino , P. , " Hellenism and Nationalism in Byzantium " , in : P. Magdalino , *Tradition and Transfactions in Medieval Byzantium* , London , 1991 , No. XIV , p.12 .

(3) Ibid ,p.12.

(4) Angold , *Church and Society* , p. 512 .

الخطر بدوره ولّد لديهم حاجة ماسة إلى إعادة تحديد هويتهم فى مواجهة ذلك الآخر ، فإن هذا الشعور وهذه الحاجة تزايدا فى أعقاب الغزو اللاتينى لمدينة القسطنطينية عام ١٢٠٤م، كرد فعل طبيعى من جانب البيزنطيين لحدث وصفه أحدهم بأنه " طوفان عالمى"[١]. وقد بدا ذلك واضحا للغاية فى إمبراطوريات المنفى ، خاصة نيقية Nicaea ، حيثما أصبح استخدام مصطلح هللينى ، للإشارة إلى البيزنطيين ، أمرا شائعا ومألوفا ، خاصة من قبل أهل الفكر والثقافة ، فمؤرخ القرن الثالث عشر جورج أكروبوليتيس George Akropolites أشار إلى نيقية على أنها " أرضنا الهللينية " ، كذلك أشار ثيودور الثانى لاسكاريس Theodore II Lascaris فى إحدى رسائله إلى جدل ثار فى بلاط نيقية بين علمائه وأعضاء سفارة ألمانية ، وأن النصر كان حليف الجانب النيقى ، وهو الأمر الذى عكس – على حد تعبيره- " تفوقا كبيرا للهلينيين "[٢].

وحتى بعد استرداد القسطنطينية عام ١٢٦١م ، ظل البيزنطيون حريصين على تأكيد هويتهم كهللينيين ، فأسقف سلمبريا يوحنا خورتاسمينوس[٣] John Chortasminos (١٣٧٠-١٤٣٧م) استخدم فى مراسلاته مصطلحى "رومانى" و"هللينى" للإشارة إلى البيزنطيين ، كما راح يبدى خوفه من أن ينسى " الهللينيين " لغتهم اليونانية نتيجة استخدامهم للغة التركية ، وفى خطاب آخر راح يظهر حرصه واهتمامه بالأحوال الثقافية "للهلينيين" الواقعين تحت السيطرة الإيطالية[٤].

وعلى ذلك ، يمكن القول أن محاولة البيزنطيين لتحديد هويتهم الاثنية والثقافية منذ القرن الثانى عشر الميلادى وربطها بالهللينية ، كان رد فعل من قبلهم إزاء الأحداث

---

(1) Darrouzès , J., "Les discours d'Euthyme Tornikès (1200-1205) ",***Revue des Études Byzantines*** 26 (1968) , pp.82-3.

(2) Angold , M., "Byzantine Nationalism and the Nicaean Empire ", ***Byzantine and Modern Greek Studies*** 1(1975) , pp.49-70, esp.64-5.

(٣) كان أحد موظفى التوثيق فى بطريركية القسطنطينية ، عاصر الحصار التركى لها خلال الفترة ١٣٩٤-١٤٠٢م ، عين أسقفا لسلمبريا فى إقليم تراقيا ثم ترهب فى أخريات حياته ، له العديد من المواعظ والكتابات الدينية ، كما ترك مجموعة من القصائد والرسائل أكثرها موجه إلى الإمبراطور مانويل الثانى باليولوجوس ، انظر،
دونالد نيكول ، معجم التراجم البيزنطية ، ص٢٣٣.

(4)Vryonis , *Recent Scholarship* , pp.251-2 n.2.

والتطورات التى طرأت على علاقتهم بالآخر ، والآخر خلال هذه الفترة بات محددا ومحصورا فى العنصر اللاتينى الذى بات يشكل تهديدا خطيرا على الهوية البيزنطية ، خاصة وأنه هو الآخر شارك البيزنطيين فى ادعائهم الهوية الرومانية ، ومن ثمّ كان لزاما على البيزنطيين أن يستجيبوا لذلك التهديد باللجوء إلى هوية أكثر تحديدا وتمييزا لهم عن الهوية المتنازع عليها مع اللاتين ، وذلك بإضافة الهللينية إلى الرومانية فى سياق أكثر تحديدا على المستويات الثقافية واللغوية والعرقية ، ولكن ذلك لم يعن تنازل البيزنطيين أو تنصلهم من هويتهم السياسية كرومان وكورثة للإمبراطورية الرومانية القديمة ، فهذه الهوية أيضا ظلت حتى أواخر التاريخ البيزنطى تشكل أساسا للفكر السياسى البيزنطى. فالشاعر البيزنطى ثيودور ميتوخيتيس Theodore Metochites (١٢٧٠-١٣٣٢م) أشار فى إحدى قصائده إلى البيزنطيين فى مواجهة الآخر على أنهم "هللينيين" قبالة "برابرة" Ελλησιν η δέ τε Βαρβάροις، لم يجد تناقضا أو اختلافا عندما أشار إلى البيزنطيين فى قصيدة أخرى على أنهم " الشعب الرومانى" Ρωμαιδος Γενεης[1]، والأمر ذاته نجده فى مراسلات البطريرك أثناسيوس (١٢٨٩-١٢٩٣م-١٣٠٣-١٣٠٩م) ، الذى ظل يطلق صفة الرومانية على الشعب والأرض والحكم[2].

ومن ناحية أخرى ، يمكن القول أيضا بأن الهوية الهللينية ظلت فى وجدان الشعب البيزنطى منذ فترة مبكرة من تاريخه ، حقيقة أن مصطلح هللينى اقترن بالوثنية فترة معينة، إلا أن الهللينية كثقافة ولغة وعرق ظلت غالبة عليه ، وحتى المصطلح نفسه لم يقترن بالوثنية – على ما يبدو- إلا داخل العاصمة والمناطق المتاخمة لها. أما فى الأقاليم البعيدة عن المركز فقد ظل لمصطلح هللينى مدلوله العرقى على الأقل ، وظل يستخدم للإشارة إلى سكان هذه الأقاليم ، ثم جاء القرن الثانى عشر ليبرز فيه المدلول الثقافى إلى جانب العرقى لتمييز البيزنطيين عن غيرهم ، ولا يعنى هذا أن المدلول الدينى القديم اختفى ، بل ظل يشار أحيانا – وإن كانت قليلة- إلى الوثنية بالهللينية ، كما وضح فى استخدامات

(1) *Theodore Metochites s Poems " to himself "* , ed.& trans. J.M.Featherstone , Wien , 2000 , poems XIV pp.24-5 , XVII pp.88-9.

(2) *Correspondence of Athanasius I* , pp.4 , 32-4 , 72-3 , 168-9 , 244-5.

البطريرك كاكينوس والبطريرك أثناسيوس فى فترة متأخرة من التاريخ البيزنطى[١]، والسبب فى ذلك غير واضح ، هل جريان العادة ؟ أم ارتباط هؤلاء بوظائف دينية ؟ أم أن هناك سبب آخر؟.

وخلاصة القول ، أن الوجدان البيزنطى احتوى هويتين: هوية سياسية "رومانية"، وأخرى ثقافية وعرقية "هللينية" ، برزت الأولى عن الثانية منذ القرن التاسع فصاعدا، عندما كانت مقتضيات الصراع مع الآخر سياسية ، ثم تغير الوضع خلال النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، عندما وضح أن الهوية الثقافية والعرقية هى الأكثر تمييزا وخصوصية للبيزنطيين ، وفى وقت باتت مقتضيات الصراع مع الآخر تتخذ طابع الصدام بين عرقين وثقافتين مختلفتين ، ورغم بروز واحدة عن الأخرى ، فإن الهويتين ظلتا فى وجدان المجتمع البيزنطى ، يمثلان هوية واحدة مزدوجة ، فهم ورثة الرومان الأقدمين سياسيا ، وهم أحفاد الإغريق القدامى ، امتدادا لعرقهم ، وورثة للغتهم وثقافتهم .

* * *

(١) انظر هامش ٢١ ، ٢٥.